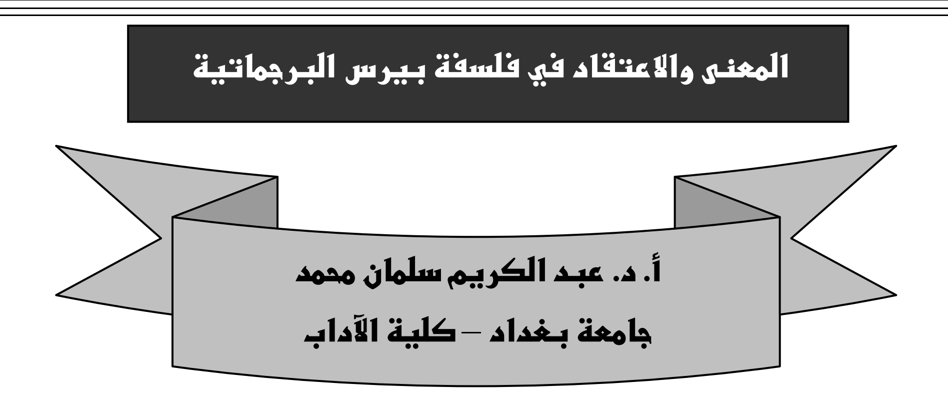


تمهيد :

تُعد نظرية المعرفة من الموضوعات التي شغلت أذهان العلماء والفلاسفة على مر العصور ، فمنهم من أعطى الأولوية للذات ومنهم من أعطى الأولوية للموضوع . ومنهم من حاول التوفيق بين الموقفين، فلكل منهم أعطى أهمية خاصة ومكملة للأخر بحيث لا يمكن استغناء إحداهما عن الآخر . وعندما جاء تشارلس بيرس حاول إعطاء أهمية خاصة لنظرية المعرفة . وكانت نظرتيه الجديدة ذات صبغه علمية واضحة أرادها أن تكون ذات قوة ومتانة بحيث يعترف بصحتها الجميع ، لأنها تظهر لهم بالتجربة العملية وتكون مشاهده من الجميع . فالمشكلة الأساسية في نظرية المعرفة الحديثة التوفيق بين الطبيعة الذاتية للفكر وبين دعوانا أننا نعرف ما هو خارج أفكارنا (1) أو يمكن أن نقول بمعنى آخر بين المثالية والواقعية .

أما المثالية لا تعترف بوجود شيء خارج العقل . فلا وجود إلا ما يدركه عقل ما . فمعرفة الشيء ووجوده جانبان لحقيقة واحدة، فمثلا معرفتي لهذا المصباح الذي أمامي هي نفسها المصباح أي انه ليس هناك أصل في الخارج وصورة عقلية في الداخل بل كل الوجود عن المصباح هو الصور العقلية وحدها، بينما الواقعية تعترف بوجود شيء خارج العقل . فالمعرفة هي صور) لما يجري في العالم من وقائع وأحداث، فالحقائق الخارجية هي بمثابة الأصل . ومعرفتي إياها بمثابة الصورة، فمعرفتي لهذا المصباح، هي ليست نفسها المصباح بل هي الصورة المرتسمة في ذهني عن أصل المصباح الموجود في الخارج (2)، تلك لم تكن مشكلة بالنسبة لأرسطو ، إذ عد العقل إنما يكتشف نظاما كان موجودا في الواقـــع من قبل حتى جاء كانط) فقلب الوضع وزعم ان النظام في معرفتنا يأتي من العقل وحده ، وتقبله بيرس) المشكلة الحديثة وقدم لها حله الخاص (3) .

بدا بيرس بالقول بأننا على وعي بكوننا نتصل في خبرتنا بالواقع مباشرة ويتكون الواقع من الأشياء الكائنة سواء فكونا فيها او لم نفكر . فالأشياء، او جميع الموجودات لها وجودها المستقل والموضوعي سواء فكرنا بتلك الأشياء الموجودة في الخارج او لم نفكر ، أضف إلى ذلك أننا أذا أردنا اجتناب المفاجئات غير السارة فأنه يجب علينا ان نسعى لان نكيف سلوكنا مع هذه الأشياء . والى هنا يتفق بيرس مع أرسطو . كذلك يرى بيرس أننا نتعامل مع الأشياء تبعا لما لدينا عنها من أفكار بيد ان أفكارنا ما هي الا تكوينات عقليه تكونت بعد اختيار عناصرها، فهي مؤسسة على خبره جزئية بالاشياء، هذه الخبرة تكون مصبوغة بتأريخنا وظروفنا، والقول بطبيعة المعرفة الاختيارية، أدى بيرس) إلى الاتفاق مع كانت) على أن العقل يشي _ بمقدار ما النظام في المعرفة .

نجد مما ذكرنا انفا كيف ان بيرس) بين اتصالنا بالواقع مباشرة، أعطى لذلك الواقع، الوجود المستقل، وبذلك اتفق مع أرسطو ثم بين بعد ذلك ان الأفكار التي نمتلكها يكونها العقل بعد اختيار عناصرها من الخبرة الجزئية وهذه الخير متصلة بنا، وهذا يتفق مع كانت). ثم اخذ بيرس) بعد ذلك يوضح ق ا : لو أمعنا النظر في حقيقة الفكرة) او المدرك العقلي لاستطعنا التوفيق بين ما هو صحيح من التفسيرات المتعارضة عند كل من أرسطو وكانط .

بعد هذا التمهيد ، نعرض خطوات نظرية المعرفة عند بيرس ا شكل التالي .

أولا. نظرية المدرك العقلي:

المدرك العقلي عند بيرس : هو المدرك العقلي لكلمه من الكلمات او عبارة من العبارات . إنما يكون من خلال تأثيرها في مجرى الحياة لذلك فأن الشيء اذ لم يكن ناتجا من التجربة فلا يمكن ن يكون له أي تأثير مباشر على السلوك واذا استطاع المرء ان يعرف بدقه كل الظواهر التجريبية المتصورة التي يمكن ان يتضمنها اثبات او إنكار المدركات العقلية ، فان المرء سيجد في هذا تحديدا كاملا لمعنى المدرك العقلي .

يتحدث بيرس) عن الرجل التجريبي باعتباره رجلا مشبع العقل بروح العمل وقال فإذا قررت أي حقيقة لهذا الرجل فانه سيفهم منها احد أمرين . أما انه لو أمكن فعلا إجراء تجربة من نوع خاص لتمخضت عن نتيجة من نوع خاص، وأما ان كلامك لا معنى له على الإطلاق .

ان نظرية المدرك العقلي لها شبة بنظرية كانت) ويتجلى هذا التشابه في الجهود التي بذلها بيرس) في مقال : كيف نجعل أفكارنا واضحة) لتفسير شمول المدركات العقلية في عالم

التجربة بنفس الطريق التي اقام بها، كانط قانون العقل العملي في عالم الأوليات) والمعنى العقلي لكل قضية يكمن في المستقبل ... لكن ماذا يكون المعنى الا حق من بين الصور العديدة التي يمكن ان تترجم اليها القضية؟ يكون عند البراجماتي هو تلك الصورة التي تصبح فيها القضية منطبقة على السلوك البشرى لان ظروف خاص بعينها، لا حينما يتبع المرء نمطا معينا من السلوك بل تلك الصورة التي تنطبق على كل المواقف وكل الإغراض، كذلك لا يتمثل الخير الأقصى) عند البراج اتي في العمل بل في عملية التطور التي يقترب بها الشيء الموجود شيئا فشيئا من تجسيده للعموميات، وبعبارة أخرى يتمثل في العملية التي يصبح بها الموجود بمساعدة العمل مجموعة من الاتجاهات العقلية او العادات بقدر الإمكان .

ولذي يستطاع فهم معنى المدركات العقلية بشكل كامل علينا ان نكون قادرين على تطبيقها في الوجود الفعلي، ولا يمكن هذا التطبيق إلا عن طريق العمل، وتعديل الوجود نتيجة لهذا التطبيق هو المعنى الصادق للمدركات العقلية، كذلك يجب ان نلاحظ انه يوجد تنوع كبير في التطبيقات لممكنة للمدركات على الوجود الفعلي، ومن هنا تتعدد المعاني وتختلف، وكلما اتسع نطاق المدركات زاد تحررها من القيود التي تقصرها على حالات خاصة، وزادة قدراتنا قدراتنا على أن تنسب اعم المعاني للكلمة .

وهكذا نجد ان نظرية بيرس تناقض كل تحديد آو تقييد لمعنى المدرك في حدود بلوغ غاية محدودة، ناهيك عن تحقيق غاية شخصية وهي اشد معارضة لفكرة وضع العقل في خدمة أي غرض مالي او غرض في منتهى الضيق . فالمدرك العقلي عند بيرس) يتأكد صدقه بتطبيقه على الوجود الفعلي، عن طريق العمل، كذلك ما يميز هذا المدرك نه غير محدود او م شخص، ويتميز بالع وميا ، و نطباقه على كل المواقف والإغراض، او تساع نطاق المدركات يحررها من الخصوصيات . كل ذلك نتيجة المنهج العلمي الذي التزم ه ا بيرس)) في فلسفت .

ثانيا. نظرية المعنى:

نظرية المعنى عند بيرس) هي الخطوة اللاحقة لما ذكر آنفا لبيان المسار الذي ، بعه في عرض نظريته في المعرفة للوصول الحل المطلوب .

السؤال الذي يطرح في نظرية المعنى هو : متى يكون للكلمة أو العبارة معنى ؟ معنى الكلمة او العبارة هو مجموعة ما يمكن للإنسان أن يؤديه من أعمال مسترشدا بالكلمة

أو العبارة وما ليس يهدي إلى عمل معين فلا معنى له، فلا فكار أي الكلمات والعبارات، أم أن تكون خططا السلوك العملي او لا تكون شدئا على لإطلاق [١١].

يقول بيرس) أن فكرتنا عن أي شيء هي فكرتنا عن إثارة المحسوسة وهذه القاعدة التي يقدمها بيرس) هي أداة للتميز بين المعرفة الصحيحة والمعرفة الزائفة، فـ معرفة الصحيحة أي الفكرة الصحيحة عن موضوع ما . تمكننا من التنبؤ بما سوف يحدث عندما نقدم على التعامل عم ذلك الموضوع [١٢].

كذلك المعرفة الصحيحة هي التي يمكن ان يخضع حلها للتجارب العملية اعني ان يكون جوابها سلوكا في عالم الواقع، وان كل كلمة من كلمات اللغة او عب ارة من عباراتها هي بمثابة إرشاد لما يمكن عملة، وما لا تكون كذلك لا يجوز ان تكون جزء من اللغة ذات المعنى، وان تعريف الكلمة هو الخطة السلوكية التي تنطوي عليها، وبهذا المقياس العملي نقيس العبارة، لا من حيث معناها فحسب، بل هى من حيث كونها صوابا او خطا، فالعبار ة في اللغة شانها شان أي فرض علمي،بحيث يمكنك إزاءها أن تقول، لو كانت العبارة صادقة لترتب عليها كذا وكذا في الواقع ثم تنطلق إلى عالم التجربة لترى هل أن ما توقعتة صحيح؟ إذا كانت كذلك فهي صحيحة أولا فهي باطلة لكن إذا كنت أمام عبارة وطلب منك وصفها بصواب او خطا، مع أنها لا تدلك على أي نتيجة علية فلا يكون أمامك إلا ان تخرج هذه العبارة من الكلام المفهوم [١٣]) لما كان معنى العبارة هو نفسه ما يترتب عليه من عمل) نتج عن ذلك ان العبارتين إذا اختلافنا في اللفظ [١٤]) كذلك العكس صحيح حيث إذا اتفقت عبارتان في اللفظ ثم ترتبه ع ى كل منها عمل يختلف عن العمل الذي ترتب على كل من هما عمل يختلف عن العمل الذي ترتبه على الاخر، كانتا مختلفتين في المعنى وان اتحدتا في اللفظ .

أما المعرفة الزائفة مثل مشكلات الفلسفة التأملية، والتي يتعذر حلها، مثل : هل ان العقل والمادة عنصران مختلفان أن أحدا هما يمكن رده للأخر؟ و مثل هل ان الروح خالدة ام فانية ؟ وهي مشكلات استعصى حلها على الرغم من ان للفلاسفة فيها جهدا كبيرا . إذن هل الإنسان عاجز عن حلها أم أنها بحكم تطبيقها مستحيلة الحل؟ لأنها ليست مشكلات حقيقة، وكل ما فيها كلمات لا تحمل معنى لأنها لا تر سم سلوكا، وما ينبغي ان ننتبه إليه هو ان المشكلة الحق ة هو ما يحتمل الحل يوما ما وبهذا تكون المشكلة الزائفة هي التي تدور حوله كلمات ليست بذات معنى، لهذ ا يحكم عليها بالزيف، فماذا بوسعنا ان نعمله إزاء العقل والمادة لنعلم ان كانا عنصرين مختلفين او لم يكونا ك ذلك؟ كذلك ما هي الآثار العملية المشاهدة إذ

كانت الروح خالدة؟ وكيف تتغير تلك الآثار العملية المشاهدة حين تكون الروح فانية؟ من الواضع لا يوجد سلوك معين يقابل أمثال هذه المشكلات إذن هي لا معنى لها وبالتالي أنها مشكلات زائفة [١٥].

مما هو ملاحظ ان الناس يتفقون على بعض المفاهيم مثل مفهوم الصلابة) لأنهم يشتركون معا في مشاهدة السلوك الذي تعنيه كلمة صلابة) وهي ان الجسم الصلب يخدش بقية لأجسام، وبهذا يستطع أي إنسان من التأكد من ذلك بأن يضغط على قطعة المادة الصلبة ثم على ثانية وثالثة للتأكيد، هذا السلوك الظاهر هو معنى) كلمة صلب حين تصف الماس بالصلابة ... لكن لنسال الآن لماذا لا يتفق الناس على معنى كلمات مثل الحرية، الديمقراطية) كاتفاقهم على معنى كلمة صلابة ؟ الجواب المعنى يتحدد حين يتحدد نوع السلوك المترتب على امثل هذه الكلمات وما دام لم يحدد معنى مثل هذا الكلمات ستظل بغير معنى [١٦].

والعبارة تكون ذات معنى لو كانت كل كلمة فيها مما يمكن تحويله إلى سلوك وعمل . العبارة فإذا وجدنا كلمة في عبارة لا ندري ماذا يكون السلوك الذي هو معناها، فسدت العبارة بأسرها وأصبحت كلاما خالي من الدلالة، وبهذا لا يكون أي فرق بين أي عبارة نقو لها وبين العبارة التي يقولها عالم الطبيعة في معمل ، فالعالم لطبيعي إذا استخدم كلمة وحدها او في عبارة لابد أن يكون ثمة ما يقابلها من إجراءات عملية مثلا إذا استخدام كلمة ثقيل أو سرعاً) عرف ماذا يعمل إزاء الشيء المتصف بالثقل أو السرعة، وهكذا الأمر في كل كلمة [١٧].

الآراء التي قدمها بيرس) في قاعدة الشهيرة، في نظر جيمس) والبرجماتين المعروفين، يعنى إدراك الظواهر . لكن بيرس) نشر أراءً في السنوات الأخيرة وحاول أن يستثني كل ما عدى ن يخلط تلك الآراء بـ ، ذهب الظواهر ومدار تلك المحاولة الرئيس هو إصراره على ان البرجماتية تذهب إلى ان الفكرة يكون لها معنى من خلال أي سلوك عملي ممكن تستطيع الفكرة ان تنظمه او تؤدي إليه، وليس يلزم للفكرة ان تؤدي بالضرورة الى تحقيق حسي مباشر وإنما يكفي ان تعطي لسلوكنا معنى [١٨].

نستطيع ان نجمل بإيجاز هذا الجزء من حل بيرس) لمشكلة المعرفة، بأن معنى الفكرة او الفرض يكمن في السلوك الذي يتمخض عنه ذلك المعنى،فالفرض الذي يمكن تحقيقه فرض صحيح ، وعند ما تقودنا أفكارنا إلى سلوك لا هو بالذي نؤخذ فيه على غره، والا هو بالذي نلتمسه فلا نجده، فعند ذالك نرى اننا قد تغلبنا على الجانب الذاتي من المعرفة وهو

جانب جوهري فيها، وان أفكارنا التي نكونها في أذهاننا تؤدي إلى أفعال تقدر الأشياء كم هي موجودة كما هي موجودة في ذاتها مستقلة عن الفكر [١٩].

هذا الموقف البرجماتي يلتقي في نهاية الأمر بالفيزياء، بذلك النوع من المذهب العلمي الذي بناه الكثير من الفيزيا ن الفا سفة على نظرية اينشتاين) النسبية، وذلك بالدرجة الأولى لان اينشتاين) نبه إلى الحاجة لتعريف الآنية او المعية في الزمان التي يمكن ان تزودنا بطريقة تجريبية لمعرفة ما إذا كانت حادثتان قد وقعتا في ان واحد ام لا ؟ [٢٠].

ثالثا : نظرية الاعتقاد:

نظرية الاعتقاد ترتبط بنظرية المعنى ومكمله لها، حيث ان الاثنين في النهاية تؤديان إلى نتيجة واحدة . فنظرية الاعتقاد هي محاولة الإجابة على هذا السؤال : إذا كان لدينا اعتقاد معين بأن هنالك في العالم الخارجي شيئا ما، ذا صفه معينه التحليل الصحيح لمل هذا الموقف؟

إذن فما هو الاعتقاد ؟ يعرفه بيرس) بأنه : النغمة النصفية التي تختم جملة موسيقية في سيمفونية حياتنا اليومية . وللاعتقاد ثلاث خواص :.

١ . هو شيء نشعر بوجوده .

٢ . يهدى الاضطرابات الناشئ من الشك .

٣ . يتضمن إقامة قاعدة للفعل في طبيعتنا .

ويمكن ان نعرف الاعتقاد بشكل موجز بأنه عادة):

فالاعتقاد حافز للتفكير، ويجد الفكر واحة عند وصولة إلى الاعتقاد، ولكن بما انه قاعدة للفعل فأن تطبيقه يتضح المزيد من الشك والمزيد من الفكر حين يكون نقطة للتوقف ثم نقطة جديد للانطلاق بالنسبة للفكر، في حالة التوقف يسمي ه بيرس) فكرا ساكنا مع ان الفكر في جوهرة فعل لا يعرف السكون، والنتيجة النهائية للتفكير هي ممارسة الإرادة التي لايكون الفكر جزء منها، والاعتقاد ما هو إلا مسرح للفعل العقلي، اثر واقع على طبيعتنا، و شيء عن التفكير، ويؤثر كذلك في تفكيرنا المقبل [٢١]. إذن عندما نقول ان لدينا فكرة او اعتقاد صائب المقصود من ذلك ان لدينا عادة معينه نشعر بوجودها ونستطيع ممارستها إزاء هذا الذي نقول عنة انه جواب : ولتوضيح ذلك نضرب المثل التالي : هيك قد رابئني على ارض الغرفة شيئا اعتقدت) انه ثقل من أثقال الحديد التي يحملها الرياضيون، فما معنى هذا الاعتقاد

الذي نشا لديك إزاء الجسم المعين الذي رايته؟ فلا بد من وجود قواعد تضبط بها السلوك إزاء ذلك الجسم فلو أردت السير على ارض لغرفة مارا به، وجب ان تدور حوله أو تخطو من أعلاه حتى لا تعثر قدمك علية فتقع وإذا أردت حمله فلا بد ان تستعد لذلك استعدادا ما، عضليا يتناسب مع ثق ه المنتظر، فهذه النتائج العملية التي تترتب على اعتقادك،بان ما أمامك ثقلا من حديد هي نفسها مغزى ذلك الاعتقاد ومضم ونه ومعناه كذلك في كل اعتقا) لدينا عن العالم الخارجي يكون جديرا بهذا الاسم أي اعتقاد صائب اذا كان دالا على أنماط من السلوك العملي حيال الشيء الذي يتعلق به ذلك الاعتقا (٢) .

لكن افرض ان قائلا زعم ان على ارض الغرفة شيطان) لا تراه ولا تحسه ولا تعثر به قدم السائر ولا يمكن حمله، فما هو السلوك الذي يقتضيه اعتقاد كهذا فمن يسير على ارض الغرفة، انه لا سلوك، وبالتالي فليس، الاعتقاد بذي معنى (٣) .

فالحقيقة مثل كل صفة أخرى تتألف من المعلولات الحسية الجزئية التي تولد ها الأشياء التي تشارك فيها، والأثر الوحيد للا شياء الحقيقية هو أنها تسبب الاعتقاد، فجميع الإحساسات التي تثيرها تبرز في الشعور في شكل اعتقادات (٤) . ما كيف التميز بين الاعتقاد الحقيقي من الاعتقاد الباطل و الاعتقاد في الوهم، فهذا واضح من المثالين السابقين مثال الثقل) ومثال الشيطان) فالجسم في الأفكار الحقيقة والباطلة هو في الاستناد إلى المنهج التجريبي العملي .

بعد هذا ننتقل إلى نقطة مهمة في نظرية الاعتقاد وهى الارتباط بين الاعتقاد والشك : إذ يرتبط بالاعتقاد الشعور بالشك لأنهما حالتان متصلة احدهما بالأخرى، فلو انك اعتقدت) في آمر معين ثم سلكت إزاء ه حسب اعتقادك فيه فو جدت ما يعطل هذا السلوك او يغيره على أي وجه من الوجوه، فذلك يجعلك تشك) في اعتقادك الأول، الذي كان باعث ذلك السلوك، عندها تجد اختلاف بين السلوك المواقع والسلوك المتوقع، أما إذا كان السلوك الذي توقعنا هو نفسه السلوك الذي أجريناه، فيظل اعتقادنا الذي بعثنا على السلوك قائما، ونعود إلى مثال، ثقل الحديد فلو اعتقدت) أن ما أمامك ثقل من حديد وأردت حمله فتأهبت لذلك بما يتناسب مع ذلك الاعتقاد، ثم حـ لته على هذا الظن، فإذا هو اخف جدا مما تو عت مما يحدث لشعورك إزاءه؟ ستأخذك الدهشة أولا ثم يأخذك الشك) في صواب ما اعتقدته وهذا يجعلك تغير اعتقادك لتتخذ إزاء الشيء اعتقاد اخذ يتناسب معه العادات السلوكية المطلوبة للتصرف حياله، كأن تعتقد) مثلا أ ه جسم مصنوع من الورق او الخشب او الزجاج، فيترتب على الاعتقاد قواعد سلوكية جديدة فلا تضع ه في النار إذا لم ترد له احتراقا ولا تقذفه من النافذة إذا لم ترد له ان ينكسر

وهنا نضع أيدينا على مبدأ منهجي خطير ، وهو أن الباعث على التفكير العلمي هو الشعور بالدهشة ينتابنا حين تدلنا المشاهدة على ان ظاهرة معينة من ظواهر الطبيعة لم تظهر في خبرتنا على النحو الذي قوقعنا لها، فِ دئ ؛ ذ ط نشك فيما كنا قد اعتقادنا حيالها، ونحاول أن نعتقد في أمرها اعتقادا جديدا يتضمن نمطا سلـ ا يا جديدا، فمحاولة الشك) التي ذكرناها سابقا لا يكون الشك) فيها حز يقي إلا إذا كنا إزاء موقف لم ينجح فيه السلوك الذي ساكناه على عقيدة معينة لدينا فتحتم ان نشك) في تلك العقيـ ، وان حث لها عن بديل بحيث يقتضي هذا البديل سلوكا يتفق مع الموقف الذي نحن يصدا د [٢٥].

يمكن ان نجمل المقارنة بين الشك) و الاعتقا) في عدة نقا :-

_ موضوع الشك) و الاعتقاد واحد ينتقل الإنسان فر ه من حالة الاعتقا) إلى حالة الشك) او من حالة الشك) إلى حالة الاعتقاد حسب ما تقتضيه نتائج السلوك فالعبارة نفسها التي اعتقا) في صوابها، كذلك أشك) في صوابها إذا رأيت ان سلوكي على أساسها لا يستمر في طريقه ا ما اعتقدت) له ان يستمر [٢٦].

– بين الحالتين فرق عملي) حيث أننا نربط حالة الاعتقاد بالعمل الذي يتضمنه ذلك الاعتقاد اما حالة الشك، فلا يترتب عليه عمل .

– كذلك بينها فرق في الشعور فالإنسان يكون قلق حالة الشك) ومط ن في حالة الاعتقا ، فإذا أخذك الشك) في حقيقة شيء معين كان ذلك حافزا لك ان تستقصي الصواب في أمر ه حتى تصل ف ه إلى اعتقاد ما وعندئذ يزول القلق الذي انتابك أثناء الشك، فالإنسان لا يحب ان تدوم حالة الشك ويسعى إلى تغيرها وبالعكس إذا كان في حالة الاعتقاد بمحاول تشبـ ، ها ودوامه [٢٧].

– الرغبة في الار تقال من حالة الشك) إلى حالة الاعتقا) هي التي يطلق عليها بيرس) اسم البحث) لان الدافع الى البحث العلمي، دائما هوان يصطدم احد اعتقاداتنا بحقيقة الواقع فيزول اليقين عن ذلك الاعتقا) ويصبح إزاءه في حالة شك، فنحاول ان نجد اعتقاد اخر مكانة يصلح أساسا لسلوكر ا حيال الواقع سلوكا ناجحا، ففي رأي بيرس) ان ما يهم الإنسان هو ان يستقر فكر إلى حالة الاعتقا) بغض النظر عن صواب هذا الاعتقاد او ِ طئ ، وأحسن الحالات هي حالة نظن فيها ان اعتقادنا صواب [٢٨].

وسائل تثبيت الاعتقاد:

ان الشك) ليس موضوع تسليه يتلهى به الفيلسوف ساعة يشاء ثم يترك ه ساعة يشاء ليعيدنا إلى ما كنا نؤمن به من قبل، فالشك يهاجم الناس عدة مرات في اليوم في جملة من المواضيع العادية ويحتاج إلى اتخاذ قر رات يتبعها عمل ملائم كذلك هنالك شكوك كبرى يواجهها العلم بطرق وتجارب هي غاية في الدقة والإتقان لكن قبل ان يتم كن العلم من الظهور على المسرح كان الإنسان يتبع طرق خاصة للتخلص عن الشكوك ، بيرس) يعبد ثلاث طرق استعملها الإنسان للتخلص من الشكوك قبل ان تصل البراجماتية إلى الطريقة الرابعة وهي الطريقة العلمية كحمل أساس لجميع القضايا الغامضة التي تواجه الإنسان في حياته على هذا الأرض [١٩] .

إذن وسائل تثبيت الاعتقاد أربع هي :-

١ . وسيلة الإصرار والتكرار : هي ان الإنسان الذي يتبعها يجد آخرين يتبعون غير ما يعتقد، ويحاول الإنسان التثبت بما يعتق د ويرفض الاستماع الى غيره، لكن قد يحدث في لحظه من حظات، الصحو لهذا الإنسان، فينتبه الى آراء الآخرين وذلك تتزعزع الثقة في معتقده، إذن، اذا لم ننعزل عن الآخرين فلا يد ان تؤثر المعتقدات بعضها بعض وعلة تبطل وسيلة تثبيت المعتقد المحصور بالأفراد ، لكن الحاجة أمس الى اعتقادات جماعية ثابتة منها الى اعتقادات فردية ثابت ، وهنا تأتي الوسيلة الثانية لتثبيت المعتقد [٢٠] .

٢ . وسيلة السلطة : أي جعل إرادة الدولة تعمل بدلا من إرادة الفرد، وذلك بغيه إبقاء الآراء او التعاليم التي تعتقدها صائبة أمام نظر الجمهور دائما مع توفير القوة الكافية في الوقت نفسه لمنع التعاليم المخالفة من الانتشار معنا باتا، وفي التاريخ أمثلة كثيرة عن هذه الوسيلة من الوجهة الدينية والسياسية على وجة الخصوص، لكن بيرس) يعود إلى القول : (لا تستطيع أية مؤسسة ان تكييف جميع الآراء حول كل المواضيع الكبرى المهمة هي التي ينصب عليها الاهتمام أما الأخرى فتترك لتأثير المسببات الطبيعية وهذا النقص في هذه الطريقة لا يكون ضعفا فيها ما دام مجموع الأفراد في حاله منحطة من الثقافة، لا يمكن لرأي ان يتغلب على رأي آخر لكن في أكثر الدول الخاضعة لنير الكهنوت يوجد بعض الأفراد المرتفعين عن تلك الحالة الثقافية المنحطة، وهؤلاء يملكون حاسة واعية من الشعور الاجتماعي،وهم يستطيعون ان يروا أناسا في بلدان أخرى وعصور أخرى قد اعتنقوا تعاليم مختلفة اختلافا كبيرا عن تعاليمهم، وهكذا تبدا الشكوك بالانتشار وتصبح لديهم الرغبة في الإقلاع عن التمسك بالمعتقد السابق او فرضه بصورة تعسفية على الأخريين) [٢١] .

٣. وسيلة العقل : وهي ترتكز على مبادئ أولية يتقبلها العقل وتتبع تحليلات تبدو معقولة جدا ولكن ينقصها الدعامة النهائية المتأتية عن الخبرة والتجربة، لكن كثير من الفلاسفة وصلوا الى نتائج معقولة لكن فشل هذه الوسيلة في الكشف عن الحقيقة وإزالة الشكوك واضح للعيان، إذ أن البحث فيها يخضع للأذواق والميول وما يرتئيه الفيلسوف من عقلاني) في التحليل [٢٢].

٤. وسيلة البحث العلمي : وهي الوسيلة الوحيدة التي تجعل الإنسان متأكد من اعتقاده لان صحته تخضع دائما للتجربة، والطريقة العلمية تقودنا إلى المنطق وقد أضاف بيرس) الى الاستقراء والاستنتاج في المنطق أسلوبا ثالثا هو أسلوب الفرضيات وهو الأسلوب الوحيد الذي يمكننا من الوصول إلى حقائق جديدة فالا فتراض الحقيقة يجب ان تخضعه للتجربة لترى مدى صحِ ته فإذا برهنت التجربة على صحة هذه الفرضية فإنها تصبح عندئذ حقيقة ناصعة تضاف الى جملة الحقائق الأخرى المثبتة بواسطة التجربة والاختبار وإلا فتطرح تلك الفرضية جانبا لتأخذ فرضية أخرى تثبت أمام محك الاختيار ، فالفرضيات التي يمكن كل إنسان من تجربتها والتحقق من صحتها هي التي توصل الى الحقائق وتجعل فعل الحقيقة يتسع رويدا رويدا إلى ان يشمل كل شيء في العالم فيشترك الجميع في رؤية الحق وتظهر الحقيقة كاملة غير منقوصة وهذا ما يسعى إلـ ه الكثير من العلماء اليوم بإتباعهم أسلوب البحث العلمي [٢٣].

هـ ه هي الوسائل التي يبينها بيرس) في تثبيت الاعتقاد وتعتبر الوسيلة الرابعة وهي وسيلة البحث العلمي من أكثر الوسائل تثبيتنا للاعتقا ، فهي الوسيلة التي وضعها، بـ سر .

غاية (بيرس) من نظريتي المعنى والاعتقاد:

نستنتج من النظرتين ان بيرس أراد سريان قواعد البحث العلمي على الفلسفة ، فلو اخذ عالم طبيعي بنظرية معينه اعتقد في صدقها كان معنى هذا الاعتقا) ان ما تتوقعه منها في السلوك العملي هو نفسه ما يصادفنا في خبراتنا،ثم لو أ راد متشكك) ان يشك في صدق تلك النظرية،كان أساس هذا الشك، أنة يجد في التجارب العلمية ما يختلف مع ما نتوقعه من تلك النظرية،وعند ئد يقع عبء الإثـ ت على المتشكك، فهو الذي نطالبه بن يبين، أين يجد ا ناحية العملية التي تخالف ما نتوقعه على افتراض صدق النظرية، فإذا كان هذا ميدان العلم، فلماذ لا يكون هو نفسه منهج التفكير، كذلك في ميدان الفلسفة ؟ لماذا يسمح الفيلسوف لينفسه ان يقول قولن لا يمكن ان تترتب علية نتيجة عملية، ومع ذلك يحسب بان لقولة معنى ، اني

يكون المعنى ؟ وكيف يتشكك في اعتقاد معنى حين لا يكون في الحياة لعملية حالة تدعو الى هذا الشك ؟

فلا معنى) لقول ولا أساس لاعتقاد) إلا إذا كان ذلك المعنى) او هذا الاعتقاد . هو نفسه خط سلوكي يمكن أداؤها وما ليس كذلك فلا هو بذي معنى ولا هو بالفكرة التي يجوز ان تكون منا موضع اعتقاد) وهذا هو لباب المذهب البرجماتي عند رسر).

٤. نظرية البحث التعاوني:

في هذه النظرية يقدم بيرس) حله لمشكلة المعرفة، اذ يربط تعريفه للحقيقة بمناقشة عامة لطبيعة البحث العلمي معرفة الباحث لشيء ما، او موقف ما، ربما تكون ناقصة، لهذا لا يكفي ان يصل فرد واحد الى هذا الموقف،فلا بد من وجود بحوث أخرى لتصحيح هذا الموقف، او هذه المعرفة المكتسبة من البحث الفردي لإكمال النقص، وبهذا تكون المعرفة عملا جماعيا، والتصحيح مهمة تعاونية، وان هذه الجماعة في لحظة معينة قد تخطئ فيما يتعلق بموضوع ما،وهو ما يطلق عليه . بيرس) استحالة العصمة من الخطأ، فالجماعة تنشد الصدق وصفه معيارا أقصى تضعه تصب الفكر، والباحثون عن (الصدق) يتجهون دوما نحو مرتبة المعرفة الكاملة ، ولكنهم لم يبلغوا تلك المعرفة ابدا، مع ذلك هذا لا يتنافى من وجود معرفة يقينية، مثلا نثق ان نابليون عاش، ونستمر في تحصيل المعرفة عن حياته [٤] .

فالحاجة الى التحقق الدقيق في صدق المعلومات من اجل تكامل التعاون مع لآخرين، يعتقد بيرس) ان الصدق لينظر فيه عقليا فحسب، بل يكتسب أخلاقيا، كما أن طبيعة معرفتنا تتسم بالجزئية وبالاقتصار على جانب دون جانب،وتحتاج إلى ضبط النفس، فالعمل الذي نؤديه في تكوين أفكارنا واستخلاص النتائج يجب ان يتم في روح من ضبط النفس والتعاون داخل الجماعة، وفي محيط اجتماعي يضع الصدق) معيارا أقصى ما ينشده الباحثون [٥] . فالحقيقة عند بيرس) هي الرأي المقدر له أن يأخذ به كل الباحثين، فالشيء الذي يمثله هذا الرأي هو الواقع [٦] .

مما ذكر آنفا يتضح ان بيرس) يرى انه حتى الجماعة لا يمكن ان تصل الى الصدق الكامل، ولكن كل باحث لابد أن يكون له دور في تصحيح بعض الأخطاء في نطاق البحث المستمر، والرأي الذي يستقر عليه الباحثون هو الحقيقة، فحتى الخطاء من مقل الجميع يقبل كفرضيه حتى يظهر جنس له مواهب وقدرات للبحث ف يتفوق على سابقه،فيكون هو الرأي

الذي ؤخذ به نهاية المطاف [٧٠]. وبالنتيجة، فالحقيقة التي يصل إليها الباحثون، يمكنهم بها رد كل ادعاء، لان ما وصلو ا إليه كان بالتجربة والملاحظة والتطبيق العملي، والاتفاق الاجتماعي، والبحث التعاوني، فهذا الاتفاق لم يكن اتفاقا نظر نا بل اتفاق عملي، فالكل قد لاحظ صدق هذه الفكرة بالنتيجة الملموسة داخل تطاق عملية بحث مستمرة لا تنتهي . هذه هي النتيجة التي يصل إليها بيرس) من خلال دراسته للمدرك العقلي، ونظرية المعنى، ونظرية الاعتقاد ليختمها بالبحث الجماعي التعاوني الذي يمتاز بال وضوعية و الواقعية، ويكون حل منسجم مع توجهه العلمي والعملي .

الهوامش:

---

١ الموسوعة الفلسفة المختصر : فؤاد كامل . جلال العشري _ مكتبة بغداد النهضة، ص ١٣٨
٢ زكي نجيب محمود : نظرية المعرف . مكتبة الا جلو المصري . القاهرة ص ٤.١١
٣ الموسوعة الفلسفة المختصر : فؤا . جلال العشري . عبد الرشيد الصادق ص ١٢٨
٤ المصدر نفسه ص ١٣٨
٥ المصدر نفسه ص ١٣٨
٦ الموسوعة الفلسفية المختصرة : ترجمه فؤاد كامل جلال العشري ص ١٣٨ .
٧ نش _ رونز : فلسفة القرن لعشري – مجموعة مقالات مراجعة زكي نجيب محمود ــ مؤسسة سجل العرب القاهرة ٩٦٣ ، ص ٢٣٣
٨ المصدر نفسه ص ٢٣٣ _ ٢٤
٩ رونز : فلسفة القرن العشرين، ترجمة عثمان نوبه ص ٢٣٤ .
١٠ المصدر نفسه، ص ٢٣
١١) . محمود، زكي نجيب : حياة الفكر، مكتبة الأنجلو مص ة ص ٤٩ ص ١٥٠
١٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة، ص ١٣٩
١٣) . محمود، زكي نجيب : حياة الفكر ص ١٥٤
١٤) المصدر نفسه ص ١٥٤
١٥) . محمود ، زكي نجيب : حيات الفكر ص ١٥٤
١٦) المصدر نفسه ص ١٥١
١٧) المصدر نفسه ص ٥١ ١٥٣
١٨) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٣٩ .
١٩) وايت ، مورتون كابريل : عصر التحليل، ترجمة أديب يوسف ص ١٥٣ .
٢٠) مورتون كبريل وايت : عصر التحليل، من النص الذي أخذه من مقالي : كيف نوضح أفكارنا او كيف نجعل أفكارنا واضحة ، ص ١٥٤ .
٢١) زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد ص ٥٦ ١٥٧

٢١) نفس المصدر ص ١٥٧.
٢٣) هربرت شنيدر : تاريخ الفلسفة الأمريكية محمد فتحي الشنيطي، ص ٢٤٢ .
٢٤) زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم الجديد ص ١٥٧ ١٥٨
٢٥) المصدر نفسه ص ١٥٩
٢٦) المصدر نفسه ص ١٦١
٢٧) زكي نجبي محمود : حياة الفكر في العالم الحديث ص ٦٤ ١٦٢
٢٨) المصدر نفسه ص ١٦٢
٢٩) فان وسب : الحكماء السبعة، مجلة الفكر بيروت ٩٦٣ ص ٣١٨
٣٠) المصدر نفسه، ص ٣١٨ _ ٣١٩
٣١) المصدر نفسه، ص ٣١٩
٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٠
٣٣) هربرت شنيدر : تاريخ الفلسفة الامريكية . ترجمة فتي الشنيطي ص ٣٤٢
٣٤) نفس المصدر ص ٣٤٨
٣٥) الموسوعة لفلسفة المختصره : ترجمة فؤاد كامل،ص ٣٩ ١٤٠
٣٦) المصدر نفسة ص ١٤٠.
٣٧) وايت، عصر التحليل،ص ٦٢١.

قائمة المصادر:

- الموسوعة الفلس ة المختصرة ، ترجمة : فواد كامل ، جلال العشري، عبد الرشيد صادق ، بغدا ، مكتبة النهضـ .

- ا . زكي نجيب محمود : نظرية المعرفة، مكتبة ال نجلو المصرية القاهر .

- رونز، فلسفة القرن العشرين، مجموعة مقالات، ترجمة عثمان نويه، مراجعة د . زكي نجيب محمود، مؤسسة سجل العرب القاهر .

- ا . زكي نجيب محمود : حياة الفكر في العالم ديد، مكتبة الانجلو المصرية القاهر .

- مورتون كابريل وايت، عصر التحليل، ترج ة، اديب يوسف، دمشق ١٩٧٥ .

- هربرت شنيدر : تاريخ الفلسفة المريكية، ترجمة محمد فتحي الشيطي، القاهر .

- فان وسب : الحكماء السبعة، دار مجلة الفكر، ط ا ، بيروت ١٩٦٣.

- برتراند رسل، حكمت الغرب، ترجمة د . فواد زكريا، عالم المعرفة ٥/ ، الكويت ١٩٨٣ .